obeikandl.com

obeikandl.com

من الإشارات الكونية فى سورة الفتح

يدور المحور الرئيسى لسورة الفتح حول صلح الحديبية بتفاصيله، وملابساته، والدروس المستفادة منه التى يجب على المسلمين فى كل عصر وجيل أن يتعلموها، وعلى الرغم من ذلك فقد جاء فى هذه السورة المباركة عدد من حقائق الوجود، ومن الإشارات الكونية التى يمكن سردها فى النقاط التالية:

(١) فمن حقائق الوجود **(أن لله جنود السماوات والأرض)** وجاءت الإشارة إلى هذه الحقيقة مرتين فى سورة الفتح (فى الآيتين الرابعة والسابعة) ومن جنود السماوات والأرض الملائكة، والصالحون من الإنس والجن، والظواهر الكونية المختلفة، من مثل حركات كل من الأرض وأجرام السماء، والرجم بالنيازك والشهب، وتبادل كل من الليل والنهار، وتعاقب الفصول، وحدوث الرعد والبرق، وتصريف الرياح، والسحاب المسخر بين السماء والأرض، وهطول الأمطار، وجريان الماء وخزنه، والهزات الأرضية، والثورانات البركانية، والعواصف والأعاصير الهوائية والبحرية، وغيرها.

وهذه الظواهر الطبيعية كلها من جند الله، وفهم العلماء لميكانيكية حدوثها لا يخرجها عن هذا الإطار أبدا، فالله (تعالى) هو الذى يسخرها عقابا للمذنبين، وابتلاء للصالحين، وعبرة للناجين.

(٢) ومن الحقائق المطلقة **(أن لله ملك السماوات والأرض)** وقد جاءت الإشارة إلى تلك الحقيقة فى الآية الرابعة عشرة من سورة الفتح، وفى عشرات الآيات القرآنية الأخرى؛ وذلك لأنه لا يمكن لعاقل أن يتصور هذا الكون بغير خالق وصاحب ومالك، له من القدرة والعلم والحكمة ما مكنه من إبداعه على غير مثال،

فالكون المادى لا يمكن أن يكون قد أوجد ذاته بنفسه، أو أن يكون قد وجد بمحض الصدفة؛ لأنه محكوم بقدر هائل من القوانين والسنن التى لا تتبدل ولا تتغير، والصدفة أعجز من تحقيق ذلك. وعلى ذلك فلا بد من وجود خالق عظيم للكون، لا شريك له فى ملكه، ولا منازع له فى سلطانه، ولا شبيه له من خلقه.

(٣) إن سنن الله فى الكون ثابتة لا تتبدل ولا تتحول ولا تتغير إلا بإذنه وحده (سبحانه وتعالى)، وقد أشارت سورة الفتح إلى هذه الحقيقة فى الآية الثالثة والعشرين بقول الحق (تبارك وتعالى):

﴿... وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلاً﴾ [الفتح: ٢٣].

(٤) الإشارة إلى شىء من صفات النبى الخاتم والرسول الخاتم (صلى الله عليه وسلم) ومن صفات الذين آمنوا معه فى كل من التوراة والإنجيل.

(٥) تشبيه قلة عدد المسلمين حول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين بدأ بدعوته المباركة، ثم تزايد أعدادهم بالتدريج حول هذه الرسالة السماوية الخاتمة بإحدى طرق التكاثر فى النبات، وهى التكاثر بالأشطاء أى البراعم التى تنمو عند المنطقة الفاصلة بين الجذر والساق، وعملية التكاثر بالأشطاء لم تعرف فى مجال علم النبات إلا أخيرا، والتشبيه بها فى كتاب أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة، على نبى أمى (صلى الله عليه وسلم)، وفى أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، وفى أرض صحراوية قاحلة له من الدلالات ما له عند كل ذى عقل، وبصيرة ونظر.

﴿... وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ...﴾

[الفتح: ٢٩]

من الدلالات اللغوية للنص الكريم

تشير الآية الكريمة التى نحن بصددها إلى أن مثل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وصحابته الكرام كما جاء فى الإنجيل الذى أنزله الله (تعالى) على عبده ورسوله عيسى بن مريم (عليهما السلام) كبشارة سابقة ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين) كان نصه:

﴿... وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ...﴾ [الفتح: ٢٩].

يقال **(شطأ)** الزرع، و**(أشطأ)** إذا أخرج سيقانا إضافية من العقد الموجودة على قاعدة ساقه تشبهه تماما، بينما الفروع تختلف عن الساق، وتخرج من أية منطقة عليه.

(فآزره) أى أن النبات الأصلى يقوم بإمداد الشطء بالغذاء اللازم لنموه فقوى ذلك الشطء ودعم النبتة الأصلية من قاعدتها، كما يقال (آزرت) البناء (بالمد والقصر) أى قويت أساسه. وقد ثبت علميا أن الشطء عند خروجه من الأصل **(الأم)** فإنه يعتمد اعتمادا كليا فى تغذيته عليه حتى تتكون عليه ثلاث أوراق خضرية، وأربعة أو خمسة جذور فيبدأ فى الاعتماد فى تغذيته على ذاته.

(فاستغلظ) أى تحول من الدقة إلى الغلظة، وذلك بتقوية جدر خلاياه بإفراز كميات كبيرة من كل من السيليلوز واللجنين، وبظهور

عدد من العقد المغطاة بأغماد الأوراق. «*... فاستوى على سوقه ...*» أى فاستقام على أصوله ؛ لأن (سوق) هنا جمع (ساق) وهذه المرحلة ـ مرحلة الاستواء على السوق ـ تأتى بعد مرحلة الاستغلاظ، حيث تبدأ الخلايا فى الانقسام كى تستطيل المنطقة بين عقدة والتى تليها وتعرف بالسلامية، وتظل كل سلامية تدفع بالتى تليها حتى يتم النمو فتستوى السنابل على السوق عندما تصل السوق إلى نهاية مراحل نموها.

أما فسائل النخل (**جمع فسيلة**) فهى نوعان: الأول منهما ينمو على ارتفاع معين من جذع النخلة، وليس له مجموع جذرى ويعرف فى العامية باسم «**الراكوب**»، والثانى ينمو من قاعدة النخلة، ويحتوى على جذور خاصة به، ويفصل عن النخلة لاستخدامه فى الإكثار من نوعها بزراعته فى مكان آخر.

من الدلالات العلمية للآية الكريمة

والآية القرآنية الكريمة التى نحن بصددها تشير إلى حقيقة علمية من حقائق علم النبات لم تعرف إلا مؤخرا، وهى حقيقة التكاثر فى بعض النباتات بالأشطاء، أى البراعم التى تنمو عند المنطقة الفاصلة بين الجذر والساق، كما يتم فى العديد من النباتات الاقتصادية الهامة مثل القمح والشعير والأرز والذرة الرفيعة، وقصب السكر، وغيرها من نباتات العائلة النجيلية التى تتميز بالأوراق الشريطية، والسيقان الدقيقة القائمة والمكونة من سلاميات متصلة ببعضها البعض. وبالزهور المركبة على هيئة نورات تنضج مكونة السنابل أو الداليات، كما تتميز بالجذور الليفية التى يحمل الكثير منها ريزومات عقدية، ويتكاثر أغلبها بالأشطاء التى تكثر من ثمارها ؛ لأن العائلة النجيلية وهى من أكبر عائلات النبات، حيث تضم حوالى ٤٥٠ جنسا من أجناس النبات، وتحوى هذه الأجناس أكثر من سبعة آلاف نوع مختلف، ويمثل كل نوع من هذه الأنواع بلايين الأفراد ؛ ولذلك تنتشر نباتات هذه العائلة على الأرض لتغطى مساحات هائلة منها، تفوق المساحات التى تغطيها أفراد أية عائلة نباتية أخرى، وتضم العائلة النجيلية أعشابا حولية أو معمرة، وتتميز بسيقان سلامية، نحيلة فى العادة كما هو الحال فى نبات النجيل ؛ ولذلك وهبها الله (تعالى) القدرة على التكاثر بالأشطاء حتى يقوى

عودها على مقاومة هبات الريح، وعلى الانتصاب فوق قاعدتها، وعلى مضاعفة ثمراتها.

والأشطاء عبارة عن براعم تنمو عند المنطقة الفاصلة بين الجذر والساق، كما هو الحال فى نبات القمح الذى تتكون جذوره من مجموع أساسى خارج من البذرة النابتة، ومجموع عرضى يخرج من البراعم الجانبية، وكذلك الساق يتميز إلى ساق أساسى يمثل السويقة المندفعة من داخل البذرة النابتة بعد تمام نمو تلك السويقة، والعديد من السيقان العرضية التى تندفع من قاعدة الساق على هيئة عيدان قاعدية تخرج من البراعم الإبطية الموجودة عند العقد القاعدية المزدوجة، والنامية على قاعدة الساق الأساسى؛ ولذلك تمر النباتات التى تتكاثر بواسطة الأشطاء بمراحل الإنبات، وتكون البادرات، ثم مراحل خروج الأشطاء، ثم مراحل تكون الأزهار والثمار، التى تتضاعف أضعافا كثيرة بتكون الأشطاء والتى قد يصل عددها إلى أكثر من ثلاثين فى النبتة الواحدة.

وبذلك ينبت من الحبة الواحدة مجموعة من السيقان الإضافية **(الأشطاء)**، التى تحيط بالساق الأصلى مكونة حزمة مركبة من السيقان المتصلة ببعضها البعض فى مجموعة واحدة من الجذور الليفية، التى خرجت من حبة قمح واحدة عند إنباتها، أى من أصل واحد، وهذا الأصل الواحد عبارة عن بادرة واحدة خارجة من بذرة واحدة، ولها مجموع جذرى واحد، وسرعان ما تنمو الأشطاء حتى تصل إلى طول الساق الأصلية تقريبا، وتعطى سنابل مثلها، بحيث يكون لكل شطء سنبلته الخاصة به، وبذلك تنبت الحبة الواحدة من القمح مثلا عدة نباتات فى حزمة واحدة يحمل كل منها سنبلته أو سنابله. وسنبلة القمح سنبلة مركبة يحمل فيها المحور عدة سنابل أصغر (سنيبلات)، مرتبة فى تبادل على صفين متقابلين، وينتهى المحور عادة بسنيبلة طرفية. ويتكون فى كل سنيبلة حبتان إلى ثلاث حبات من القمح، وتحمل السنبلة فى المتوسط ١٥ إلى ٢٠ سنيبلة، وتخرج الأشطاء متلاحقة، واحدا تلو الآخر، ومن هنا كان التعبير هنا بالإفراد (أخرج شطأه)، وكان وصف التتابع بحرف العطف (ف) الذى يدل على الترتيب مع التراخى فقال الحق (تبارك وتعالى):

﴿... كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ...﴾

وبتكاثر الأشطاء فإن الساق الأصلى للنبات يحاط بعدد من السيقان الثانوية، (الأشطاء) التى تنمو حوله على هيئة حزمة من الأعواد القائمة تزيد من سمك النبتة الأساسية، وتغلظ قطرها، وتمكنها من الاستواء منتصبة فوق مجموعها الجذرى، فتزيد من تثبيتها فى مهب الريح بشغل مساحة أكبر من الوسط النامية فيه، وتضاعف من غلتها، وتبعد الأعشاب الضارة بالحيلولة دون نموها بالقرب من الساق الأساسية والمجموعة الجذرية. أما الفسائل **(مثل فسائل النخل)** فإنها تضعف الأم، وتقلل من العصارة الغذائية الواصلة إليها، خاصة الأنواع التى تنمو على ارتفاع من جذع النخلة، بالإضافة إلى أنها تصبح مأوى للآفات والحشرات المختلفة.

ويعجب القارئ للقرآن الكريم على هذه الدقة البالغة فى اختيار لفظة (شطء) فى الآية الكريمة التى نحن بصددها؛ وذلك لأن الأشطاء تختلف اختلافا كليا عن الفسائل، وعن غيرها من أنواع الخلفات النباتية الأخرى، ففى الوقت الذى لا تنفصل فيه الأشطاء عن نباتها الأصلى، تنفصل الفسائل وغيرها من أنواع الخلفات النباتية عن أصولها، كما يحدث فى حالة نخيل البلح. وقد أكدت البحوث فى علم النبات أن إخراج الأشطاء يحول دون سُبات النبتة الأم، والذى عادة ما يحدث أثناء تكوّن السنابل. والآية الكريمة جاءت فى وصف قوة الترابط بين هذا الرسول الخاتم (صلى الله عليه وسلم) وصحابته الكرام والتى تجسدت فى توادهم، وتعاطفهم، وتراحمهم، بدرجة لم يسبق لها مثيل فى علاقات الناس أفرادا وجماعات، فتشبههم بالأشطاء، حول الأصل يشد بعضه بعضا، ويتلقى الكل عن أصل واحد، ويتغذى من معين واحد، ولم تشبههم بالفسائل لاختلاف دورها اختلافا كليا عن دور الأشطاء، ففى الوقت الذى تتغذى فيه الأشطاء كلها مع الساق الأصلى من مجموع جذرى واحد لا تنفصل عنه أبدا وإلا ماتت، فإن الفسائل التى تنمو من قاعدة النخلة تنفصل عن أصولها بإنتاج جذور جانبية عرضية لا تلبث أن تنمو لتصبح مصدرا أساسيا لتغذية الفسيلة التى تستقل فورا عن أصلها، وتغدو صالحة للنقل بعيدا عنها لتبدأ حياة مستقلة تماما عن الأصل الذى جاءت معه.

وورود التشبيه بالزرع الذى أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه فى

مقام وصف موقف الصحابة الكرام من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من الالتفاف والحب والوفاء والولاء، والتأييد، والفداء له، مع الانطلاق من منبع واحد؛ لما يجزم بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية؛ لأنه لم يكن لأحد من الخلق إدراك للفرق بين الشطء والفرع والفسيلة من قبل أربعة عشر قرنا، ولا من قبل قرن واحد من الزمان.

obeikandl.com